مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الأول
(ذو الحجة 1445هـ/ جوان 2024م)، ص 57–75

الفكر التاريخي وفلسفته عند المؤرخ لسان الدين بن الخطيب

(1313–1374م/713–776هـ)

The historical thought and philosophy of the historian Lissan Eddine Ibn Elkhatib (713-776ah/1313-1374ad).

ط. د/ نبيل دوادي Nabil Douadi [1] ، **أ. د/ نبيلة عبد الشكور Nabila abd Elchakour** [2]

[1] جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله مخبر المخطوطات nabil.bouadi@univ-alger2.dz

[2] جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله مخبر المخطوطات Nabila.hassani@yahoo.fr

المؤلف المرسل: **نبيل دوادي Nabil Douadi** الإيميل: nabil.bouadi@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 16 /2023/05 **تاريخ القبول: 15 /2024/05**

الملخص:

يتناول هذا المقال محاولة تسليط الضوء على واحد من أعمدة الكتابة التاريخية عند المسلمين بالغرب الإسلامي في القرن الثامن هجري ،وهو المؤرخ لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي، وهو رفيق وخليل المؤرخ العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، حيث سنحاول إبراز فكره التاريخي وهذا بالتركيز على مفهوم التاريخ عند هذا المؤرخ وتفسيره للأحداث و الوقائع التاريخية ،وموقفه من مناهج المؤرخين السابقين، وكيف استفاد منهم ،ومدى وجود ملامح لممارسته لفلسفة التاريخ من خلال مؤلفاته ،وإبراز الإضافات الجديدة التي ساهم بها لسان الدين ابن الخطيب في الكتابة التاريخية في الغرب الإسلامي ،ومدى تأثيره على المؤرخين اللاحقين،كما نبين أهم العناصر التي أثرت في تكوين منهجه التاريخي.

الكلمات المفتاحية: الفكر التاريخي، لسان الدين ابن الخطيب، فلسفة التاريخ، التاريخ.

Abstract: This article is about highlightening one of the historical pillars that the muslims in western have in 8th hijri, who was the historian "Lissan Eddine Ibn Elkhatib" Elgharnati, the campanion of the scholar "Abderrahman Ibn Khaldoune"

where we try to clarify his historical thought by focusing on the concept of the history for this historian and his explanation the events, comparing facts and his position towards the previous historians approaches and how did they benefit it ?
From his works, there is a history philosophy practising that Ibn El Khatib's tongue contributed in historical writing in western Islamic and what extent he influenced on the coming historian, we show the main elements which influenced his historical method forming.

Keywords: historical thought ; Lissan Eddine Ibn El Khatib ; History philosophy ; History.

1. مقدمة:

حظي التاريخ باهتمام العرب قبل الإسلام لحفظ أنسابهم وذكر أيامهم ،وكان الشعر أهم طريقة اعتمدها العرب في حفظ تاريخهم والتفاخر به، وبظهور الإسلام زاد اهتمام العرب المسلمين بالتاريخ وكان القرآن والسنة النبوية أبرز مصادرهم ، وكانت مواضيع السير والأنساب والمغازي أكثر ما اهتم به المؤرخون الأوائل قبل القرن الثالث هجري، وقد ارتبط التاريخ بعلم الحديث في البداية فكان أغلب المؤرخين محدثين . ومع مطلع القرن الثالث هجري شهد التاريخ قفزة نوعية في طريقة دراسته فأخذ يستقل عن علم الحديث، وينتقل من تاريخ الرواية إلى تاريخ الدراية فظهرت مناهج عديدة لدراسة التاريخ وتكونت مدارس في كتابة التاريخ الإسلامي، واعتمد تقسيم الدارسين في معظم الفترات على المجال الجغرافي فظهرت مدرسة اليمن في البداية حيث كان أغلبها رواة وقصاص وإخباريين اعتمدوا الرواية الشفوية مصدرا ، مثل وهب بن منبه وابن جريح لتبرز بعدها مدرسة المدينة وأقطابها أغلبهم محدثون كابن شهاب الزهري والواقدي وابن إسحاق ،ومع مطلع القرن الثالث الهجري ظهرت مدرسة بغداد ومن أشهر أقطابها الطبري عميد المؤرخين المسلمين وأبو حنيفة الدينوري واليعقوبي والمسعودي، ثم الخطيب البغدادي وابن الجوزي وابن الأثير، ومدرسة بلاد الشام بأقطابها كابن كثير والذهبي والمدرسة المصرية ونذكر من مؤرخيها المقريزي والقلقشندي والسخاوي ،أما في الغرب الإسلامي فكان الاهتمام بالتاريخ أقل من نظيره المشرق وتابعا له في القرون الأولى، ولكن

سرعان ما برز عديد المؤرخين اللذين ساهموا في تطوير علم التاريخ فظهر بعض المؤرخين المشهورين خاصة في الأندلس على غرار ابن حيان القرطبي وآل الرازي وابن حزم وابن الخطيب .

ولكن المتأمل في تطور الفكر التاريخي عند المسلمين يميز وجود اتجاهين ونمطين في تدوين التاريخ ودراسته .

الاتجاه الأول : إتجاه المنهج التقليدي اعتمد نقل الروايات وسرد الأحداث والوقائع دون تحقيق أو تفسير أو نظر ،ومن أشهر مؤرخين هذا الاتجاه نذكر الطبري وابن الجوزي والذهبي وابن كثير.

أما الاتجاه الثاني : اتجاه المنهج العقلي فكان له أسلوبا ومنحا مختلفا في تدوين التاريخ ودراسته من خلال الاعتماد على التحقق من الروايات وتفسير الأحداث والنظر في الحقائق لفهم أسباب وقوعها ،ومن أشهر مؤرخي هذا الاتجاه اليعقوبي والمسعودي والبيروني مشرقا وابن حزم و ابن خلدون مغربا ،الذي وضع منهجا شبه متكامل في دراسة التاريخ ، ونقله لبعد ومرحلة جديدة لفهمه وإدراك العبرة منه وجوهر دراسته رابطا التاريخ بالعلوم الأخرى مبلورا أفكار مؤرخي هذا الاتجاه النقدي التفسيري، للوصول به إلى ما عرف بفلسفة التاريخ، وقد عاصر ابن خلدون المؤرخ الأندلسي الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب فاحتك به وصاحبه وتبادلا الرسائل والأفكار ،وكان من أخص أصدقائه وكان للسان الدين ابن الخطيب صولات وجولات في الكتابة التاريخية مسهما بمؤلفات كثيرة ،فبماذا تميز الفكر التاريخي عند لسان الدين ابن الخطيب ؟وهل ظهرت ملامح لممارسة فلسفة التاريخ في كتب ومؤلفات لسان الدين ابن الخطيب.

2. مفهوم فلسفة التاريخ:

تعد إشكالية تحديد المفاهيم والمصطلحات التاريخية بدقة من الصعوبات التي يعاني منها الباحث خاصة إذا كان المصطلح مازال خاضعا للأبحاث والدراسات، وهذا ما هو كائن مع مصطلح فلسفة التاريخ ،ومن هذا المنطلق سنحاول تعريف الكلمتين بإيجاز :

الفلسفة لغة تعني محب الحكمة أما في مدلولها الاصطلاحي فتتبدلت بتبدل الزمان والمكان.[1] وعموما تعني التأمل التجريدي للظواهر البشرية ومحاولة تفسيرها، أي النظر وتجريد الظواهر من ملابساتها وتحويلها إلى مفاهيم بحيث يمكن استخدامها في سياقات أخرى.[2]

التاريخ لغة يدل على الإعلام بالوقت مضافا إليها ما وقع في ذلك الوقت من أخبار ووقائع[3]،

واصطلاحا هو دراسة للتطور البشري في جميع جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية أيا كانت معالم هذا التطور وظواهره واتجاهاته[4]، ويقصد بفلسفة التاريخ في الدراسات التاريخية الحديثة معنيين اثنين :

الأول: فلسفة التاريخ هي دراسة لمناهج البحث من حيث الطرق المستعملة في الكتابة التاريخية و الفحص النقدي لمنهجية المؤرخ وكيفية التعامل مع الأحداث التاريخية.[5]والثاني وهو الأكثر أهمية ورواجا ففلسفة التاريخ هي ذلك العلم الذي يحاول أن يكتشف القوانين المتحكمة في حركة المجتمعات والدول [6]، ومعرفة العوامل الأساسية التي تتحكم في سير الوقائع التاريخية واستنباط القوانين الثابتة التي تتطور بموجبها الدول والأمم على مر القرون والأجيال.

وقد ظهر مصطلح "فلسفة التاريخ "لأول مرة في عصر الأنوار بفرنسا خلال القرن 18م على يد فولتير، وقد قصد بها دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف[7] ، ولكن التفلسف في التاريخ ظهر قبل ذلك ،فجذور هذا النوع من محاولة تفسير التاريخ بنظرة كلية تعود إلى المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون ،ولقد تغيرت نظرة الغربيين اللذين اعتبروا أن فيكو الإيطالي أول من فكر ووضع فلسفة التاريخ ولكنهم تداركو ذلك بعد دراسة مقدمة الذي كان له السبق في ذلك بمدة تربو عن ثلاثة قرون[8].

3. تطور الفكر الفلسفي التاريخي عند المسلمين حتى القرن(8هـ/14م):

لما تقادم الزمن وكثرت المدونات والأسفار التاريخية عند المسلمين اختلفت النظرة إلى الأحداث وأصبح هدف التاريخ فهم الحاضر والتنبؤ للمستقبل ،فالقرآن الكريم المرجع الشامل للحضارة الإسلامية جاء بنظرة عالمية شاملة للتاريخ فوضع سنن تاريخية شاملة في كل زمان ومكان ،ومتنبأ بأحداث مستقبلية ومؤكدا على استخدام العقل ،فبدأ المؤرخون المسلمون باستخدام المنهج العقلي في دراسة التاريخ ووضع نظريات عامة

في تفسير التاريخ انطلاقا من الأحداث الجزئية لكل حادثة والإنتقال من التفسير البطولي إلى التفسير الحضاري ،فبرز عدة مؤرخين ساهموا فن نقل الفكر التاريخي لمراحل جديدة ،وظهر في مؤلفاتهم ما يدل على ممارستهم لما عرف فيما بعد بفلسفة التاريخ وهنا سنحاول اعطاء نماذج لبعض المؤرخين في المشرق والمغرب أين ظهرت ومضات وملامح لممارسة فلسفة التاريخ من خلال مؤلفاتهم ومنهم:

المؤرخ اليعقوبي: هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي مؤرخ وجغرافي كثير الأسفار من أهل بغداد عمل في دواوين الدولة العباسية وارتحل في كثير من الأقطار صنف الكثير من الكتب أشهرها تاريخ اليعقوبي و مؤلفه الجغرافي البلدان (ت بعد292هـ-905م)[9].

ومن التقنيات التاريخية الجديدة التي أضافها اليعقوبي للفكر التاريخي الإسلامي عدم اعتماده على السند في كتابته التاريخية ،كما مزج بين التاريخ والجغرافيا فأبدع في كليهما ،مما ساهم في ربطه بين التاريخ والجغرافيا .

وقد ظهرت بوادر وإرهاصات ممارسة فلسفة التاريخ في بعض الأفكار الواردة في مؤلفاته ومن نماذج ذلك نذكر:

* **أثر البيئة على طبائع الناس** :حيث استهل كتابه البلدان بوصف مدينة بغداد بصفات عظيمة ،ثم وصف بيئتها ومناخها وكيف أثرت على سكان مدينة بغداد فقال "...باعتدال هوائها وطيب الثرى وعذوبة الماء حسنت أخلاق أهلها ونضرت وجوههم وانفتقت أذهانهم حتى فضلوا الناس في العلم والفهم والأدب...[10].

*مشاكلة الناس لزمانهم: والمراد بالزمان هنا السلطان من حيث انعكاس سيرته وسياسته على المجتمع فإذا غلب الزهد وخشونة العيش قلده كبار الدولة وعموم المجتمع ،وهي نفس الرؤية التي ذهب إليها الماوردي والطرطوشي، ثم جاء به فولتير الذي جعل من نوع الحكم أحد العوامل الثلاثة التي تؤثر على الفكر البشري[11].

المسعودي: هو علي بن الحسين بن علي المسعودي أبو الحسن من ولد عبد الله بن مسعود صاحب النبي علية الصلاة والسلام ،وهو من إقليم بابل وانتقل إلى مصر فأقام بها ،وله من الكتب "مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك "،وكتاب "ذخائر العلوم وما كان في سلف الدهور كالأشراف"،و كتاب "أخبار الزمان ومن أباده الحدثان" وكتاب "أخبار الخوارج " [12]،وكان معتزليا مات في جمادى الآخرة سنة 345هـ[13]، يعد المسعودي من المؤرخين ذوو الثقافة المتنوعة إذ لم يهتم بالتاريخ والجغرافيا فحسب ،بل اهتم كذلك بعلم الكلام والأخلاق والسياسة وعلوم اللغة [14]،وفتح أفاقا جديدة في الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية فتوسع في مفهوم التاريخ فأصبح كل شيء وكل نشاط هو موضوعا لبحثه. [15]

اعتمد المسعودي على تقنيات جديدة أعطى فيها بعدا جديدا للكتابة التاريخية عند المسلمين استمرت حتى ابن خلدون نذكر منها:

الجمع بين التاريخ والجغرافيا العلمية بأسلوب علمي رائع [16]،واستخدام طريقتين في الكتابة التاريخية التاريخ حسب الموضوعات والتاريخ الحولي والاهتمام بالتاريخ العالمي [17]،وأما في مجال فلسفة التاريخ فقد ظهر من خلال مؤلفاته ما يكفي لاعتباره أكثر المؤرخين المسلمين الذين مارسوا واكتشفوا فلسفة التاريخ ،ووضعه لنظريات وقوانين بنى واعتمد عليها ابن خلدون كثيرا في مقدمته ،بل جعل بعض الدارسين يشك أن أفكار ابن خلدون أغلبها مستمد من كتب المسعودي خاصة إذا علمنا أن أغلب كتب المسعودي لم تصلنا باستثناء مؤلفين أو ثلاثة.

ويذكر ابن خلدون المسعودي في مقدمته ويصفه بإمام المؤرخين "التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل فأما ذكر الأحوال العامة للأفاق والأجيال والأعصار ، فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره، وقد كان الناس يفردونه في التأليف كما فعل المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الأمم والأفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاث مئة غربا وشرقا وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول، وفرق شعوب العرب والعجم فصار إمام المؤرخين يرجعون إليه وأصلا يعولون عليه في تحقيق الكثير من أخبارهم ". [18]

وتتجلى ممارسة المسعودي لفلسفة التاريخ في اتجاهين:

الاتجاه الاول من فلسفة التاريخ النقدية الخاصة بنقد مناهج المؤرخين فخصص بداية مؤلفه" مروج الذهب" في ذكر المؤرخين فيما أصابوا وفيما اخطأوا ،فيقول المسعودي عن سنان بن ثابت بن قرة "...حين انتحل ما ليس من صناعته فألف كتابا جعله رسالة إلى بعض إخوانه من الكتاب... ابتعد عن مركز صناعته وتكلف ما ليس من مهنته وهو وإن أحسن فيه ،لو أقبل على علمه الذي اختص به لكان أسلم واستدل بمقولة ابن المقفع "من وضع كتابا فقد استهدف فإن أجاد فقد استشرف وإن أساء فقد استقذف"[19]، ونقده للجاحظ وذكر بعض أوهامه في مؤلفاته كذكره في مؤلفه الأمصار وعجائب البلدان أن نهر السند من نيل مصر لوجود التماسيح فيه فيقول المسعودي بأن الرجل لم يسلك البحر ولا أكثر الأسفار ولا تقرى المسالك والأمصار وإنما كان حاطب ليل ينقل من كتب الوراقين. [20]

و الاتجاه الثاني استنباط أهم القوانين التي أبدع فيها المسعودي والتي تدل على فهمه وتفسيره لحركة وصيرورة الأحداث التاريخية التي صاغها في كتابه التنبيه والإشراف ومن أبرزها نذكر:

الأمم السبعة:قسم الجماعات البشرية إلى سبع أمم عظيمة تجتمع في اللغة والملك الواحد ،ثم أضاف لها الدين فحاول المسعودي إعطاء دراسة شاملة للتاريخ فجمع المجتمعات البشرية على أساس عرقي ديني ليأتي بعدها توينبي أحد أقطاب فلسفة التاريخ ويصنفها على أساس الدين.

أثر البيئة في العمران والطبائع:يقول أن للبيئة أثر في تقسيم الأرض إلى عامر مسكون وغير مسكون معللا ذلك بالحرارة والبرودة فوضع قواعد وقوانين في تأثير البيئة على العمران وهي الفكرة التي تحدث عنها هيغل في تفسيره للتاريخ .

قوانين الدولة والملك :عالج المسعودي قبل الماوردي والطرطوشي أهم قوانين الدولة والملك كما يظهر ذلك في عناوين مقدمة كتابه التنبيه والإشراف، والتي سنجدها فيما بعد عند ابن خلدون كأمارات إقبال الدول وشروط قوة الدولة واستقامتها وعلل الانحلال والزوال.

القياس والمقابلة بين الحضارات: درس أسباب ضعف الدولة العباسية وشبهها بالإغريق بعد الاسكندر الكبير.

التنبؤ بالمستقبل: حين وصف ماضي مدينة الحيرة وحاضرها متنبأ بمستقبلها.[21]

هذا عن إرهاصات ظهور فلسفة التاريخ عند المؤرخين بداية من القرن الثالث والرابع هجري في المشرق ،وقد عكف الدارسون في هذا المجال على ذكر عدة مؤرخين حاولوا وضع نظريات وقوانين عامة لفهم وتفسير مسار التاريخ وصيرورته من بينهم :

مؤلفات إخوان الصفا ، ابن مسكويه والاعتبار العقلي في درس التاريخ من خلال مؤلفه "تجارب الأمم "، البيروني والذي عنى بشكل كبير بالمنهج العلمي في دراسة التاريخ و ابن طباطبا في كتابه الآداب السلطانية وذكره لأسباب قوة الدول وانحطاطها وغيرهم اللذين تناولوا التاريخ بطريقة وأسلوب التفسير والتحقيق .

وفي الغرب الإسلامي برز مجموعة من المؤرخين اللذين نقلوا الفكر التاريخي لمراحل جديدة من الاعتماد على الرواية في التأريخ إلى الاعتماد على التأريخ بالدراية .

شهد القرن الخامس في الأندلس بروز أحد أعظم المؤرخين المفكرين المسلمين ابن حزم الأندلسي (ت 456هـ) ،وهو الأديب الشاعر المؤرخ الفيلسوف الحافظ العالم بعلوم الحديث والفقه متفنن في العلوم جمة وهو علي بن احمد بن سعيد بن حزم بن غالب أصله من الفرس ولد عام 384 بقرطبة [22] ،له جملة من المؤلفات في مختلف الميادين ومن مؤلفاته "طوق الحمامة في الألفة والآلاف" و "جوامع السيرة" ومؤلف "الفصل في الملل والأهواء والنحل" و"رسائل ابن حزم الأندلسي" و "جمهرة انساب العرب"و"رسالة المفاضلة بين الصحابة" ،ومؤلف "نقط العروس في تواريخ الخلفاء".

ومن كتب ابن حزم تبرز بوادر استخدام فكر تاريخي جديد قريب لما يعرف بفلسفة التاريخ بشقيها التأملي والنقدي، فركز على شهادة الحس وتحكيم العقل واعتبرها أسس للفكر التاريخي وهو ما سيتبناه ابن خلدون بعده بثلاثة قرون ونصف ،فاعتمد منهجا نقديا في توثيق سند الرواية ومتنها فحقق قدرا كبيرا من الثقة

في نتائج دراساته ،فأكد أن الحاضر ثمرة للماضي وان المستقبل لن يكون إلا صدى للماضي والحاضر فجاء التاريخ محققا لكثير من تنبؤاته .

فعند دراسته وقائع عصره حيث دب الفساد في أوصال دول الطوائف تنبأ بانهيارها على يد النصارى ،وهو ما حدث بسيف ملك قشتالة ومن أبرز المتأثرين به المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون الذي وصفه في كتابه المقدمة بإمام المؤرخين ،ويقول المؤرخ المعاصر مُحَمَّد عنان لم تكن صفة المؤرخ لدى أبي مُحَمَّد صفة عارضة اجتمعت إلى جانب صفاته الأساسية الأخرى وهي أنه فيلسوف من أعظم فلاسفة الشرق والغرب [23] .

وفي القرن الثامن هجري شهد المغرب الإسلامي بروز مؤرخ أوصل الفكر التاريخي عند المسلمين إلى قمته ،فوضع نظرية متكاملة لدراسة التاريخ وهو العلامة الأديب الفقيه المؤرخ الناقد ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الحضرمي الاشبيلي التونسي المالكي الأشعري(732–808هـ) ،ولد بتونس ونشأ بها وتقلد عدة مناصب سلطانية عند حكام عصره ببلاد المغرب والأندلس ،ثم ترك السياسة سنة 776هـ واعتزل بقلعة بني سلامة بتيهرت غرب الجزائر لتأليف كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر "،وفي سنة 780هـ ارتحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ثم استقر به المقام في القاهرة فتولى بها قضاء المالكية، ومشيخة المدرسة البيبرسية، وظل بالقاهرة إلى أن وافته المنية سنة 808هـ .[24]

من أهم مؤلفاته: لباب المحصل في أصول الدين التعريف، (رحلة ابن خلدون) ،وكتاب في التصوف هو "شفاء السائل". [25]

يعتبر ابن خلدون واضع أسس فلسفة التاريخ ويتجلى الفكر الفلسفي التاريخي عند ابن خلدون بوضوح في كتابه المقدمة بشقي فلسفة التاريخ التأملية والنقدية .

الشق الأول: (فلسفة التاريخ النقدية) حيث مارس النقد لمناهج المؤرخين اللذين سبقوه في دراسة التاريخ في بداية كتابه المقدمة وذكره لأسباب وقوعهم في المزلات والمغالط.[26]

الشق الثاني :وهو استخراج مجموعة من القوانين المحركة والموجه لسيرورة الأحداث التاريخية وتقديم وجهة نظر عن المسار التاريخي ككل وتخطي الزمان والمكان ومن أشهر نظرياته التاريخية :

-أثر الهواء في أخلاق البشر.[27]

-في أطوار الدولة[28].

– التعاقب الدوري للحضارات:حيث قسم الى عدة أطوار (طور البداوة–طور الحضارة والدولة–طور الهرم والفناء).[29]

وتوجد الكثير من النظريات والقوانين التي وضعها ابن خلدون في كتابه المقدمة.

4.الفكر التاريخي وفلسفته عند لسان الدين ابن الخطيب (713–776هـ /1313–1374م):

لسان الدين ابن الخطيبæ بن القرن الثامن الهجري ،عصر الإنحطاط السياسي المرافق للازدهار الفكري وهو صديق و خليل ابن خلدون ،تكونت بينهم علاقة صداقة قوية فتبادل الرسائل والأفكار ولقاءات ،ومعلوم أن ابن خلدون أعطى لعلم التاريخ بعدا جديدا من خلال أفكاره عن التاريخ خاصة من خلال كتابه "المقدمة" ورغم أن الكثير من المؤرخين لم يضعوا مؤلفات خاصة بعلم التاريخ مما يصعب إصدار أحكام عن نظرتهم للتاريخ وكيفية فهمهم وتفسيرهم لحركة التاريخ ،إلا أن الرجوع إلى مؤلفاتهم ودراستها قد يساعدنا في فهم بعض جوانب فكرهم التاريخ، ولكن لو ألقينا نظرة على كتاب العبر لعرفنا أن نظرة ابن خلدون لكيفية دراسة وتفسير التاريخ لا تعكس وآرائه في كتاب المقدمة مما يؤكد صعوبة وضع مؤلفات تاريخية وفق نظرية تكاملية للتاريخ فقد يكون فهم المؤرخ للحركة التاريخية متكاملا كابن خلدون ،ولكن كتطبيق لهذا المنهج عند الكتابة التاريخية من الصعوبة مما كان ، فكيف نظر ابن الخطيب إلى التاريخ؟ وما الجديد الذي أضافه للفكر التاريخي الإسلامي ؟وماذا عن ممارسته لما عرف فيما بعد بفلسفة التاريخ.

لسان الدين بن الخطيب هو مُحَمَّد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني[30] ،يرجع أصله إلى أسرة يمانية استقرت بالأندلس ولد بلوشة في أسرة عرفت بالعلم و الأصالة والجاه خدمت ملوك بني الأحمر، تلقى تعليمه على أقطاب علماء العصر ،امتلك موهبة فذة في اللغة قل نظيرها مارس العمل السياسي وتقلد عديد المناصب وكان عالما موسوعيا ذاع صيته ترك تراثا حافلا منوعا بين التاريخ

والأدب والسياسة والتصوف والطب والشعر،[31] له ألقاب عديدة: لسان الدين وذو القبرين وذو الميتتين وذو العمرين وذو الوزارتين وذو اللسانين [32] ،لم يترك لنا ابن الخطيب مدون خاص بالتاريخ كما فعل ابن خلدون بكتابه المقدمة ولكن من خلال مؤلفاته نلمح فكر تاريخيا مفعما بالدراية في دراسة التاريخ .

- مفهوم التاريخ عند لسان الدين ابن الخطيب:

يقول بن الخطيب: "ولما كان الفن التاريخي مأرب البشر ووسيلة النشر، يعرفون به أنسابهم في ذلك شرعًا وطبعًا ما فيه، ويكتسبون به عقل التجربة في حال السكون والرّفيه، ويستدلون ببعض ما يبدي به الدهر ويخفيه ...".[33]

وهكذا، فالتاريخ عند ابن الخطيب به تعرف الأنساب و يعرف الإنسان الماضي ويكتسب التجربة للاستفادة والاعتبار منه في الحاضر والمستقبل.

- ويقول في كتابه رقم الحلل فن نظم الدول :

وبعد فالتاريخ والأخبار فيها لنفس الغافل إعتبار
وفيه للمستبصر إستبصار كيف أتى القوم وكيف صاروا
يجري على الحاضر حكم الغائب فيثبت الحق بسهم صائب .[34]

نستطيع أن نرى أن ابن الخطيب كشف شيئا عن ملامح فلسفة التاريخ في فكره فيشير هنا إلى فائدة التاريخ في التعرف على أسباب قيام الدول وعلل سقوطها ،وأهمية قياس الحاضر بالغائب فضلا عما يقدمه التاريخ من خبرات بشرية متراكمة فيها تذكرة للعاقل وتنبيه للغافل ،فهذه أدوات المعرفة التاريخية كما يراها ابن الخطيب(كيف ؟ولماذا؟) ومثل هذا النظر الفلسفي لا نجده في الأراجيز التاريخية وإنما ظهرت في القرن الثامن زمن ابن خلدون وابن الخطيب .

- أثناء تدوين ابن الخطيب للتاريخ لا يتقيد بتعريفه بل تجاوزه فظهر المنهج النقدي في مؤلفاته، حيث حلل الأحداث والوقائع في كثير من المواضيع فظهر البعد التحليلي لابن الخطيب للوقائع والأحداث التاريخية ،ففي مجال عرضه لهيجة الربض التي وقعت في عهد الأمير الحكم الأول (ت206هـ) واجراءاته في القضاء عليها ومعاقبة القائمين عليها، وهي نفس الإنتفاضة التي حدثت على عهد مُحَمَّد بن أبي الحجاج في إمارته الثانية ،وكيف استفاد ابن الخطيب من التجربة الأولى وأخطائها في موقفه من الثورة التي حدثت في زمنه ،فأخذ العبرة من دروس التاريخ من أكبر دلائل فهم التاريخ حيث تعامل معها ابن الخطيب بحزم عسكري والعفو العام مستخلصا الدرس من موقف الأمير الحكم الأول .

وتحليله للأحداث التي جرت في الأندلس من كثرة الثوار وقيامهم المستمر على السلطة لفترات زمنية متفاوتة فأرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب:

- منعة البلاد وكثرة الحصون والمعاقل وبأس أصحابها.
- علو همم الثائرين وشموخ أنوفهم وعدم إحتمالهم الطاعة.
- وجود الملجأ الآمن وذلك بالالتجاء إلى ملوك الإسبان.[35]

وفي مجال ضعف الدول وسقوطها فدرسها وشبه الدول كلما ضعفت بالأرض المزروعة بالفواكه والخضر ،والعابثين بها بمنزلة العشب والدغل الضار الذي يسهل نزعه إذا كان الفلاح قوي ،وإن كان الفلاح مريضا أو ضعيفا غلب العشب الضار على الأرض وأهلك الزرع وهكذا حال الدولة والتي تهمل الدين والأخلاق كما حدث للحكام الطوائف وكيف انتهت دولهم. [36]

ما ميز الفكر التاريخي عند ابن الخطيب هو أن التاريخ لا يجب أن يقتصر على الحياة السياسية بل وحياة البلاط والقصور والأسر الحاكمة بل يجب أن يتضمن التاريخ الشعبي والدراسة الجغرافية وطبائع السكان وعاداتهم وثقافاتهم والتركيز على الوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للدول، كبواكير للأفكار التي

جاءت بها مدرسة الحوليات في فرنسا ،فركز على تصوير مختلف مناحي الحياة في مختلف أسفاره ومن أمثلة ذلك :

وصفه الدقيق للمجتمع الأندلسي وطبقاته بعد وفاة الخليفة المستنصر لله ،وحلل نفسية كل شريحة وما هي تطلعاتها وموقفها من الأحداث .[37]

وفي دراسته لمهنة الموثق في بلاد المغرب من خلال كتابه مثلى الطريقة حضر فيها حتى طابع الفكاهة والسخرية دارسا الجوانب السلبية والايجابية التي رآها في هذه المهنة .[38]

المزج بين التاريخ والجغرافيا على غرار المؤرخين السابقين اللذين اهتموا بالتاريخ والجغرافيا نظرا لارتباطهم الوثيق وأهمية الجغرافيا في دراسة الأحداث التاريخية ،ومن أشهرهم اليعقوبي و المسعودي ، ولقد مارس بن الخطيب الفكر التاريخي بشقيه الجغرافي والتاريخي وكان يطعم كتبه التاريخية بمعلومات جغرافية وأيضا يبرز الكثير من الحقائق التاريخية في كتبه الجغرافية ومن أشهر مؤلفاته الجغرافية "الإحاطة في أخبار غرناطة" ،ومزج ابن الخطيب بين التاريخ والجغرافية والرحلات في إطار من النثر الفني الرشيق والبليغ، بحيث جاءت كتاباته التاريخيّة يغلب عليها الطابع الأدبي والسَّجع اللطيف.

وفي كتبه الجغرافية كان غزير العلم الجغرافي ودقيق الملاحظة فركز على ذكر معلومات نادرة توضح مدى فهمه لتأثير العوامل الطبيعية في الحركة التاريخية حيث ذكر نوعية التراب وأهمية الموقع والمناخ والتضاريس والزراعة والماء والمنتوجات الفلاحية والصناعة ويركّز ابن الخطيب على الوصف الجغرافي للأماكن التي يتحدَّث عنها، ويجعل هذا الوصف مدخلًا لبحثه التاريخي.[39]

وفي الجانب الإثنو غرافي و هي الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات وقيم السكان وأخلاقهم وصفاتهم وأزيائهم والطعام ،كذكره فئة الفقراء والمحتاجين مركزا على جوانب من حياة هذه الفئة المهمشة ،التي أصبحت تحظى بإهتمام الدارسين حديثا من خلال دراسة المهمشون في المجتمع كما درس المرأة الريفية والحضرية في مواضع عديدة من مؤلفاته.[40]

ومثل ذلك ما ذكره في كتابه "ريحانة الكتاب" عن مشهد استقبال السلطان من قِبَل سكان إحدى المناطق في وادي فرذش، فيقول:

ثم يقول: "واختلط النساء بالرجال، والتقى أرباب الحجا بربّات الجمال فلم نفرّق بين السلاح والعيون الملاح، ولا بين البنود من حمر الخدود...".

ويلاحَظ هنا دقة ابن الخطيب، كما يلاحَظ وصفه للحياة الاجتماعيّة التي يصف ويذكر فيها النساء والرجال. [41]

ومن الجانب الأركيولوجي حظيت العمارة والأبنية باهتمامه فذكر المساجد والقلاع والقبور والحصون في مؤلفاته ونموذج ذلك عند وصفه لمدينة أغمات فيذكر مسجدها وقبر المعتمد ابن عباد وحظيته إعتماد الرميكية ، فيقول""ثم أتينا مدينة أغمات في بسيط سهل موطأ لا نشز فيه، ينال جميعه السّقي الرّغد، وسورها محمر الترب، مندمل الخندق، يخترقها واديان اثنان من ذوب الثلج، منيعة البناء، مسجدها عتيق عادي، كبير الساحة، ومئذنته لا نظير لها في معمور الأرض....وزرت بخارجها قبر المعتمد...وإلى جانبه قبر الحرة حظيته إعتماد المنسوبة لمولاها رميك...".وأنشد :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات .[42]

ومن خلال هذه التوضيحات نفهم مدى بصيرة ابن الخطيب وإدراكه لمدى أهمية العوامل الطبيعية والطبائع البشرية في حركة المدن والدول من حيث التطور أو التخلف.

كما تجلي البعد الصوفي الفلسفي في كتاباته وتركيزه على البعد الأخلاقي فهو مؤرخ أخلاق فربط معظم تفاسيره للتاريخ بالبعد الأخلاقي فكانت تفاسيره الحضارية مرتبطة بالأخلاق وأهميتها في جميع مؤلفاته كما يذكر روبرت في كتابه تأثر ابن الخطيب بابن عربي وابن سبعين ،وهو ماتجلى في مؤلفه روضة التعريف. [43]

الفكر التاريخي السياسي عند ابن الخطيب :

هذا النوع من الكتابات التاريخية اشتهر عند المسلمين وأخذ يتطور ومن أشهر اللذين تناولوا هذه المواضيع نذكر الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية والطرطوشي وبن أبي الربيع ، وإهتم ابن الخطيب بهذا النوع من الكتابة التاريخية ، وأشهر مؤلفات ابن الخطيب في هذا الحقل التاريخي مقامتين هما آداب الوزارة ورسالة في السياسة وابن الخطيب تقلد مناصب سياسية مرموقة في دولة بني النصر مما مكنه من معرفة خبايا وأسرار البلاط، فوضع في كتابه "الآداب السلطانية" شروط لتقوية السلطة ودوام الملك واعتبر كتابه دليل عمل أخلاقي سياسي ،وأما في كتابه "أدب الوزارة" درس وظيفة الوزارة بكل تفاصيلها وما ساعده هو ممارسته لهذه المهنة فنقلها من البعد النظري إلى البعد التطبيق، ومن خلال المقامتين ركز ابن الخطيب على البعد الأخلاقي حيث اعتبرها الأساس الذي تبنى عليه قوة الدولة ودوام الحكم، فإذا كانت أخلاق الوزير حميدة انعكست على حاشيته ورعيته فتعم الأخلاق الحسنة ويعم الخير في البلاد فيكون ظاهر الإنسان كباطنه ،وتتكون تركيبة بشرية مثالية تؤدي الطاعة والأعمال الصالحة فيصلح المجتمع والدولة.[44]

يذكر البريطاني روبرت إرون في كتابه ابن خلدون سيرة فكرية إن ابن الخطيب كان أكثر إنتاجا وقوة من ابن خلدون وربما كان الشخص الوحيد الأكثر تأثير في حياة ابن خلدون وكان ابن الخطيب يستشهد بالشعر في كتابته للتاريخ وهو ما لاقى إعجابا شديدا في زمانه أما ابن خلدون فقد اهتم بالقوانين العامة التي تحكم مجرى التاريخ ويرى ابن الخطيب أن جميع السلالات الحاكمة تقع في الفساد والجشع على المدى البعيد وان التاريخ حلقة مفرغة من الصراع على الحكم ويرى روبرت ارون ان ابن الخطيب الذي كان ارستقراطيا متشائما ومتعجرفا نظر إلى الجماهير باشمئزاز .[45]

5. خاتمة:

من خلال هذه المقالة خلصنا لمجموعة من النتائج تمثلت في:

-كانت بداية التاريخ عند المسلمين مرتبطة بالحديث.حيث كان أغلب المؤرخين المسلمين في القرون الثلاثة الهجرية الأولى محدثين وفقهاء .

-تطور الفكر التاريخي عند المسلمين من التأريخ بالرواية إلى التأريخ بالدراية مع مطلع القرن الرابع الهجري.

- ظهور عدة مؤرخين مابين القرن الرابع إلى القرن الثامن هجري ساهموا في تطوير الكتابة التاريخية بالاعتماد على مناهج جديدة في فهم التاريخ وتفسيره، فمهدوا لبروز فلسفة التاريخ من أمثال :اليعقوبي ،المسعودي، البيروني، مسكويه، بن حزم، وابن خلدون الذي كان له الفضل في وضع نظرية ومنهج واضح في دراسة التاريخ وكتابته فعد أول من مارس فلسفة التاريخ مستفيدا من أفكار المؤرخين السابقين.

- عاش لسان الدين بن الخطيب في القرن الثامن هجري حيث شهد العالم الإسلامي انحطاطا سياسيا وإزدهارا فكريا، وكان صديقا لعبد الرحمن بن خلدون فتأثر كل مؤرخ بالآخر.

- ألف لسان الدين بن الخطيب الكثير من المؤلفات في شتى أجناس وأنواع الكتابة التاريخية ساعده في ذلك توليه لمناصب مهمة في بلاط دولة بنو الأحمر مما سمح له بالإطلاع على الوثائق الرسمية والمهمة ،و لقد ساهم ابن الخطيب من خلال مؤلفاته المختلفة في شتى المجالات في لعب دور محوري في الحياة الفكرية في الغرب الإسلامي خلال هذه الفترة ،حيث كانت له علاقات مع مختلف القوى الفاعلة سواء في الأندلس أو في المغرب باتصاله وعلاقاته التي ربطها مع الكثير من حكام وعلماء العصر.

- يتجلى نبوغ المؤرخ بن الخطيب في فهم حركة الأحداث التاريخية في إدراكه دور الجغرافيا والاقتصاد والمجتمع والذهنيات في التأثير على الوقائع التاريخية ، فكان يهتم في كتاباته بهذه الجوانب مخصصا لها حيزا كبير في مؤلفاته، وهو ما ظهر مع المدارس التاريخية في العصر الحديث التي بنت أسس منهجها التاريخي على الإهتمام بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومدى تأثيرها على صيرورة الأحداث التاريخية .ممثلة في مدرسة الحوليات.

- بروز ملامح لممارسته لفلسفة التاريخ في بعص مؤلفاته.

6. الهوامش:

1 طحطح خالد، **في فلسفة التاريخ**، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2009م، ص28.

[2] سلطان جاسم، **فلسفة التاريخ الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ**، مؤسسة ام القرى للنشر والتوزيع، المنصورة، ط4،2010م،ص21.

[3] طحطح خالد، **مرجع سابق**، ص17.

[4]الشيخ رافت غنيمي، **فلسفة التاريخ**، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1988م، ص8.

[5] طحطح خالد، **مرجع سابق**، ص12.

[6]سلطان جاسم، مرجع سابق، ص21–22.

[7] الشيخ رافت غنيمي، مرجع سابق، ص14.

[8] طحطح خالد، **الكتابة التاريخية**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2012م، ص13–14.

[9] الزركلي خير الدين، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م،ج1، ص94.

[10]اليعقوبي أحمد بن اسحاق، **البلدان**، تحقيق مُحَمَّد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ.ص14.

[11]صائب عبد الحميد، **فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي**، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت، دط، ،2007م، ص222–224.

[12]الحموي ياقوت، **معجم الأدباء**، دار الغرب الإسلامي، تحقيق إحسان عباس، يروت، ط 1993م، ج4، ص1705–1706.

[13]الذهبي شمس الدين، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 3 ،1985م، ج15، ص569.

[14]أحمد رمضان أحمد، **تطور علم التاريخ الإسلامي حتى نهاية القرن العاشر هجري**، دارة الملك عبد العزيز،الرياض، مجلد13/ع2،1987م، ص53.

[15]–صائب عبد الحميد،نفس المرجع،ص227.

[16]–روزنتال فرانز،علم التاريخ عند المسلمين،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط 2،1983م،ص151.

[17]المديد السويكت سليمان بن عبد الله، **منهج المسعودي في كتابة التاريخ**، جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، السعودية، ط 1 ،1986م، ص250.

[18] ابن خلدون عبد الرحمن، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط 1 ،2004م، ص52.

[19] المسعودي علي بن الحسين بن علي ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق مُحَمَّد محي الدين، دار الرجاء للنشر ،القاهرة،ط1983،،5م.ص7.

[20] المصدر نفسه، ص81–82.

[21] صائب عبد الحميد، مرجع سابق، ص231–245.

[22]الحميدي ابي عبد الله مُحَمَّد بن فتوح، **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق بشار عواد معروف،مُحَمَّد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ط 1 ،2008م،ص449–450.

[23]السيد عبد الهادي عبد الباقي، **التدوين التاريخي عند ابن حزم الظاهري**، دار الآفاق العربية،القاهرة، 2017م، ص 68–71.

[24] علال خالد لكبير، **أخطاء ابن خلدون في كتابه المقدمة**، دار الإمام مالك ، البليدة، ،2005م، ص6.

[25] ابن خلدون عبد الرحمن، مصدر سابق، ص9.

[26] ابن خلدون عبدن الرحمن ، مصدر سابق، ص22–52.

[27] المصدر نفسه، ص118.

[28] المصدر نفسه، ص226.

[29] صبحي أحمد محمود، **في فلسفة التاريخ**، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1975م، ص143.

[30] المقري أحمد بن مُحَمَّد، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ، بيروت، مج5 ،1968م، ص7.

[31] طه عبد اللواحد ذنون ، **مصادر في تاريخ المغرب والأندلس**، دار المدار الإسلامي،بنغازي،ط1، 2011م، ص13

[32] ابن أبي بكر التيطواني، **ابن الخطيب من خلال كتبه**، دار الطباعة المغربية ،تيطوان، 1954م، ص40–46.

[33] ابن الخطيب لسان الدين، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق مُحَمَّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2007م، مج1، ص80.

[34] ابن الخطيب لسان الدين، **الحلل في نظم الدول**، المطبعة العمومية،تونس،ط1، 1316هـ، ص4.

[35]طه عبد الواحد ذنون ، **مرجع سابق**، ص21–23.

[36]ابن الخطيب لسان الدين، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق ليفي برفينسال، دار المكشوف، بيروت،ط2، 1956م،ص240–241.

[37] المرجع نفسه، ص44–45.

[38]بن الخطيب لسان الدين، **مثلا الطريقة قي ذم الوثيقة**، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973م، ص15–16.

[39]طبابي نعيمة، **لسان الدين ابن الخطيب**، سلطة الفكر وفكر السلطة، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط1،2021م، ص373-381.

[40]طبابي نعيمة ، مرجع سابق، ص407-427.

[41]بن الخطيب لسان الدين، **ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب**، تحقيق مُحَمَّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي،القاهرة،ط1، 1980م، ج2،ص262.

[42]ابن الخطيب لسان الدين، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، تحقيق أحمد مختار عبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء،دط،1985م،ص55-57.

[43]إرون روبرت، **ابن خلدون سيرة فكرية**، ترجمة عبد الله مجبر العمري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2022م، ص48.

[44] بن الخطيب لسان الدين، **ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب**، ص316-340.

[45]إرون روبرت، مرجع سابق، ص47-48.